إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين
فى
القرن التاسع الميلادى

شاهد القرن التاسع الميلادى نشاطاً بحرياً إسلامياً باهراً فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، أشبه بالعمليات الحربية البحرية الرائعة التى قام بها الأسطول الإسلامى على عهد الأمويين . وكانت آية هذا النشاط البحرى الجديد استيلاء المسلمين على جزيرة إقريطش (كريت) ، التى استعصى فتحها على بنى أمية وغدت قاعدة رئيسية لحركات الأساطيل الإسلامية فى هذا الشطر الهام من البحر الأبيض المتوسط . وجاء هذا النشاط البحرى وليد بعض أحداث داخلية تمخض عنها العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، إذ كانت هجرة جماعة من أهالى الأندلس إلى مصر إيذاناً بمطلع نشاط بحرى عظيم فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، جعل المسلمين يتجهون إلى تقليم أظافر البيزنطيين والحد من أعمالهم الحربية واعتدائهم على أرض الإسلام ، وبعث سالف هيبتهم ورسالتهم فى نشر راية الإسلام .

انبعث هذا النشاط البحرى عن ثورة قامت فى ركن قصى من أركان العالم الإسلامى المطل على البحر الأبيض المتوسط ، لم يكن يدرك أحد مدى ما تحمله أحداثه من تأثير على مجريات الحياة فى ذلك الوقت . إذ قامت فى الأندلس فى عهد الحكم الأول (٧٩٦ — ٨٢٢ م) ثورة أجج أوارها زعماء الفقهاء المقيمين فى الربض ضاحية قرطبة الجنوبية . ذلك أن عامة المسلمين هناك حنقوا على الحكم لإغراقه فى تناول الخمر وحبه للصيد ، فضلا عن اتخاذه حرساً له مكوناً من الزنوج والأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية، وما كان فى ذلك من استفزاز لشعور الناس . وبدأ الاضطراب سنة ٨٠٥ م حين كان كان الحكم يجتاز ذات يوم أحد شوارع العاصمة ، إذ هجم عليه الناس ورموه

بالحصباء وسط تصفيق الفقهاء وتشجيعهم . وتفاقم الأمر منذئذ حتى انفجرت ثورة خطيرة سنة ٨١٤ م تحت زعامة فقيه من البربر ، إذ حاصر الثوار الحكم فى قصره وضيقوا عليه الخناق . لكن حرس الحكم تمكنوا أخيراً من إخماد الفتنة والقبض على مدبريها .

وعاملت السلطات هذا الحى الثائر وأهله بمنتهى الشدة والقسوة ، فصلبت زعماء الثلثمائة ، ثم طلبت من سكانه أن يبرحوه جميعاً فى مدى ثلاثة أيام ، وبدأت بتدمير الحى فوراً . وأخذ سكان الربض يرحلون خارج الأندلس ، متجهين فى أعداد كبيرة إلى بعض بلاد الدولة الإسلامية التى يرونها صالحة لإقامتهم . فلجأ ثمانية آلاف منهم إلى مراكش ، على حين تابع عدد كبير منهم — ويبلغ نحواً من خمسة عشر ألفاً — سيرهم إلى مصر ونزلوا بالإسكندرية .وكان أولئك المهاجرون الذين حلوا بأرض مصر نواة النشاط البحرى فيما بعد من أرض كريت .

وصل هذا الحشد اللجب من الأندلسيين إلى الإسكندرية سنة ٨١٤ م — ١٩٩ هـ ، وكانت البلاد تعج بالحروب الأهلية ، حيث انتهز الأهالى فرصة الخلف بين الأمين والمأمون وناهضوا سلطان الخلافة العباسية . وهيأت هذه الأحوال الجو للأندلسيين ، الذين سرعان ما احتلوا الإسكندرية ، ونصبوا عليهم زعيما من بينهم يدعى أبا حفص عمر بن عيسى الأندلسى . وظل الأندلسيون أصحاب الكلمة العليا فى الإسكندرية مدى ست سنوات ، حتى انتصر المأمون وأخذ يتفرغ لإخماد الفتن الداخلية بأرض خلافته . فبعث المأمون إلى مصر سنة ٨٢٠ م أحد قادته الأكفاء ، عبد الله بن طاهر ، الذى نجح فى إخماد الثورات الأهلية ، ثم اتجه إلى الإسكندرية التى اعتصم بها الأندلسيون . غير أن أولئك المهاجرين أدركوا قوة عبد الله بن طاهر ، وعقدوا معه صلحاً فى يونيو ٨٢٧ م — ربيع الأول ٢١٢ هـ تعهدوا فيه بأن يغادروا مصر ، وألا ينزلوا بأرض تابعة للخلافة الإسلامية ، وإنما يحطون رحالهم فى بلد تابع للدولة البيزنطية ، واختاروا مقرهم الأخير فى جزيرة إقريطش التابعة للبيزنطيين ، وهى من أثرى وأخصب أراضيهم (١) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (طبعة مصر) ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

ويعتبر اختيارهم لجزيرة إقريطش حدثاً هاماً من أحداث القرن التاسع الميلادى ، لما تتمتع به الجزيرة من موقع استراتيجى ممتاز فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط . إذ يمتاز هذا القسم من البحر الأبيض بكثرة بحاره الداخلية التى تتحكم فيها الجزر الصغيرة لسيطرتها على مسالكها الضيقة العديدة . وغدت هذه المضايق البحرية الواقعة بين الجزر مطمح أية قوة تبغى لنفسها السيادة والسيطرة على مياه تلك البحار . وعرف سكان هذه الجزر تلك الحقيقة ودأبوا على إفادة أنفسهم منها . غير أن جزيرة إقريطش تمتعت بمركز الصدارة بين هذه الجزر وغدت واسطة عقدها . ذلك أن بحر إيجه الذى اختص بالقسط الوافر من جزر البحر الأبيض المتوسط يشبه فى حده الجنوبى فوهة قربة تمتد عبرها جزيرة كريت ، وتقسم مدخله إلى شطرين تتحكم الجزيرة فى كل منهما . ومن ثم كان سادة كريت فى العصور القديمة أصحاب حضارات زاهرة ورجال بحار ممتازين أخضعوا لسلطانهم مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقى من برقة إلى بلاد اليونان . فكانوا يتحكمون فى السفن التى تمخر عباب هذه المياه وفاضت خزائنهم بالمال حتى أطلقوا على هذه المساحة من الماء اسم « البحر الذهبى »[١].

وتمتعت كريت إلى جانب موقعها الجغرافى الممتاز ، بمقومات أخرى جعلت سيادتها على سائر جزر بحر إيجه راسخة الأوتاد ، إذ لها سهل ساحلى خصيب يمتد على شاطئها الشمالى بحزاء سلسلة جبالها ويقوم بأود بعض سكانها ، على حين وجد باقى السكان فى أخشاب جبالها مصدرا لبناء أسطول دائم هيأ لهم الاشتراك فى عمليات نقل المتاجر أو الدفاع عن سواحل الجزيرة ومد يد المعونة لمن يحتاج إليهم من القرى المحيطة بهم . ومن ثم اشتهرت كريت بأنها كانت منذ أقدم العصور مصدراً عظيماً للجند المرتزقة الذين نزحوا من جزيرتهم إلى البلاد المجاورة يعرضون بها قوتهم وشجاعتهم[٢] . فهذه العوامل جميعها جعلت كريت قلب البحر الأبيض المتوسط النابض ، والمحور الذى تدور عليه أحداثه .

---

(١) Semple, The Geography of the Mediterranean Region (London 1932), 74.

(٢) Ibid, 639, 440, 644, 656.

عرف المسلمون هذه الحقيقة منذ أن رسخت أقدامهم فى إقليم الشام ومصر ، وغدا لهم ساحل طويل مطل على البحر الأبيض المتوسط . وكان معاوية بن أبى سفيان سواء وهو والى على إقليم الشام ، أو وهو خليفة المسلمين صاحب الفضل الأول فى إدراك أهمية جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقى فى الصراع بين المسلمين والبيزنطيين ، ولا سيما جزيرة إقريطش عمود هذه الجزر الفقرى . فامتدت إغاراته البحرية بعد استيلائه على جزيرة قبرص إلى أرض إقريطش ، حيث غزاها خباءة بن أمية الأزدى ، الذى اشتهر بجولاته البحرية الموفقة فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى . ولكن الأمر لم يتعد فى ذلك الوقت المبكر مجرد الإغارات على الجزيرة ، دون أن يغفل سائر خلفاء بنى أمية أهمية هذه الجزيرة . فكانت أنظارهم تتجه إليها إبان موجات فتوحاتهم وتوسعهم الحربى . ففى زمن الوليد (٧٠٥ — ٧١٥ م) الذى بعث موجة الفتوحات الإسلامية مرة أخرى على شواطئ البحر الأبيض المتوسط فتحت بعض أجزاء من جزيرة إقريطش ، ولكن لم تستقر قبضة المسلمين عليها[١] .

وظلت جزيرة إقريطش مطمح أنظار المسلمين حتى زمن الخلافة العباسية . ففى خلافة هارون الرشيد (٧٨٦ م — ٨٠٩) غزاها حميد بن معيوف الهمدانى قائد أساطيل الخلافة العباسية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، دون أن يستولى عليها جميعاً . وهكذا اقتصر الأمر على جزيرة كريت حتى استولى عليها مهاجرو الأندلس فى خلافة المأمون العباسى (٨١٣ — ٨٣٣ م)[٢] . ويبدو أن الزمن ادخر إقريطش لمسلمى القرن التاسع الميلادى ، لتتذكر العالم الإسلامى بأن رسالة الجهاد لا تعرف زمناً معيناً وأن موجة الحماس الدينى لا تحدها فترة خاصة .

ويعتبر اختيار مهاجرى الأندلس جزيرة إقريطش مقراً لهم أمراً وليد الدراسة والتجربة ، إذ عرفوا اثناء إقامتهم بالإسكندرية شيئاً عن الجزيرة وأحوالها . ذلك أن المسلمين إبان نشاطهم البحري فى القرن التاسع الميلادى أغاروا على كريت

---

(١) ياقوت : معجم البلدان (مصر) ، ج ١ ، ص ٣١١ .
البلاذرى : فتوح البلدان (مصر) ، ص ٢٤٤ .
(٢) البلاذرى : نفس المرجع ، ص ٢٤٥ .

كثيراً لثرائها ، واتخذوها ملجأ فى الطريق حين دفعتهم الظروف قهراً إلى ذلك . وفضلاعن ذلك بعث أولئك الأندلسيون سفنهم من الإسكندرية إلى إقريطش ، حيث أغارت عليها وعادت لهم محملة بالغنائم ، حتى استهواهم أخيراً ثراؤها وتجارتها[١] . وكانت أحوال الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت تشجع قيام أمثال هذه الإغارات ، إذ كانت السلطات البيزنطية فى شغل شاغل بإحدى الثورات الخطيرة التى نشبت فى آسيا الصغرى ، وكادت تزلزل أركانها . فسحب الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثانى (٨٢٠ – ٨٢٩ م) قواته وجيوشه من أطراف إمبراطوريته لدفع الخطر المحدق بعاصمته ، ولم يتمكن من إخماد الثورة إلا سنة ٨٢٣ م[٢] .

وجاء انتصار ميخائيل الثانى بعد أن ازدادت رغبة مهاجرى الأندلس فى كريت واقاموا لهم مستعمرة بها فى نفس السنة التى قضى فيها على الثورة (٨٢٣ م) حول خليج سودا (Suda) . ثم لم تلبث مجريات الأحداث فى مصر أن دعمت هذه المستعمرة ، إذ أن انتصار عبد الله بن طاهر وحمله الأندلسيين على مغادرة الإسكندرية ، دعا سائر المهاجرين إلى النزوح إلى إقريطش والاستيلاء عليها ، وضمها إلى قائمة الفتوحات الإسلامية ، إذ جمع زعيمهم أبو حفص الذى تسميه المراجع البيزنطية Ἀπόχαψ أربعين سفينة حمل فيها كثيراً من أتباعه ، ومعظمهم من الشباب الفتى ويمموا وجههم شطر كريت عازمين على اتخاذها وطناً مستقراً لهم[٣] .

ويعيد استيلاء مهاجرى الأندلس على كريت أحداث الفتوحات الإسلامية الأولى ، إذ نزل أولئك المسلمون الأول الذين حملوا رسالة الإسلام بأراضى قطعت أوصالها المنازعات الدينية والاضطهادات المذهبية ، فضلا عما ناءت به

---

(١) Vasiliev, Byzance et les Arabes (Bruxelles 1935), 54, 55.

(٢) أشعل نيران هذه الثورة أحد الخارجين على الإمبراطور ميخائيل الثانى ويدعى توماس ، وتمتاز هذه الثورة بأن المأمون مد يد المساعدة لتوماس وشجعه فى ثورته على الإمبراطور ، مما جعلها ثورة خطيرة كادت تطيح بالدولة البيزنطية .

(٣) Finlay, History of Greece, II, 135; Vasiliev, Op cit, 55.

من أعباء الضرائب الباهظة ، كما كان الحال فى مصر والشام زمن تبعيتها للبيزنطيين . وكان ذلك هو حال جزيرة إقريطش عشية استيلاء الأندلسيين عليها ، إذ كانت تئن من شدة وطأة السلطات البيزنطية عليها ومن سوء إدارتها . ولذا كما رحب سكان الشام ومصر بالغزاة المسلمين ، استقبل أهالى إقريطش الفاتحين المسلمين دون أية معارضة ، وأبدوا رضاءهم بالخروج من التبعية البيزنطية .

هكذا نزل أبو حفص وأتباعه فى خليج سودا بأرض كريت سنة ٨٢٧ — ٨٢٨ م آمنين مطمئنين . وتروى المراجع البيزنطية بصدد نزول هذه الحملة قصة طريفة ، تبين مدى ما حمله أولئك الفاتحون الجدد فى نفوسهم من عزم وبأس ، وتصميم على الإقامة بهذه الجزيرة مهما كانت الملابسات . إذ بعد أن نزل جند أبى حفص إلى الشاطئ وتوغلوا داخل الجزيرة أمر بحرق السفن جميعها حتى يحملهم على التخلى عن أية فكرة قد تعاودهم فى العودة إلى الإسكندرية والالتحاق بنسائهم وأطفالهم الذين خلفوهم بها[١] . وعندما عادوا من غزوتهم ورأوا النار مشتعلة بالسفن ، ثارت ثائرتهم ، واتهموا زعيمهم أبا حفص بالجنون حين اعترف لهم بأنه هو الذى أمر بإحراقها . غير أن أبا حفص قبض سريعاً على ناصية الموقف وقال لهم « م تشكون ، لقد جئت بكم إلى أرض تفيض لبناً وعسلا ، وهذا هو وطنكم الحقيقى ؟ أريحوا أنفسكم من عناء التعب ، وانسوا وحشة وطنكم الأول . » وهنا قالوا له : « وماذا يؤول إليه أمر نسائنا وأطفالنا ؟ » فأجابهم « اتخذوا لكم من نساء الجزيرة الجميلات زوجات ، وبذا تصبحون عما قريب آباء جيل جديد . »

وكان استقرار المسلمين أولا بالغرب من خليج سودا ، حيث شيدوا لهم حصناً وأحاطوا مستعمرتهم بخندق يحميهم شر هجوم مفاجئ . غير أن أحد رهبان جزيرة كريت دلهم على مكان آخر أكثر ملاءمة وصلاحية فى الجهة الشرقية من الجزيرة ، فأسسوا لهم هناك عاصمة أقاموا بها حصناً وأحاطوها

---

(١) Vatiliev, Op. cit, 55.

(٢) Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire (New York), II, 820

بخندق كذلك ، ومن هذا الخندق أخذت العاصمة اسمها والذى تعرف به حتى اليوم وهو «كانديا» (Candia) وهذه الظاهرة الخاصة بتأسيس حاضرة لهم تسير مع سياسة العرب المسلمين فى تدعيم فتوحاتهم ، إذ أسسوا من قبل الفسطاط والقيروان وغيرها إبان فتوحاتهم الأولى ، وتجدد ذلك مرة أخرى فى جزيرة كريت فى القرن التاسع الميلادى على أيدى أولئك المهاجرين الأندلسيين . وبدأت بذلك فى جزيرة إقريطش نواة مجتمع جديد حيث تزاوج المسلمون مع أهالى الجزيرة ، وشاهدت الجزيرة كذلك عهد نظام جديد خلصهم مما عانوه من قبل[١] .

وتهدم هذه الظواهر السالفة ما تردده المراجع الأوربية الحديثة من وصف نزول المسلمين بأرض إقريطش بأنها ضرب من أعمال القراصنة . وإصرار هذه المراجع على ترديد هذه الحقيقة لا يخلو من التعصب ، لأن المسلمين لم يحترفوا القرصنة فى يوم من الأيام ، كما أنها ليست مما تألفها نفوسهم أو من الأمور التى أعدتهم الطبيعة لها . ويعزى زيوع هذه الفرية التى يسميها الكتاب الأوربيون بأعمال مسلمى كريت البحرية إلى البابوية التى أطلقت هذا التعميم الخاص بكلمة القراصنة على أعمال المسلمين البحرية فى البحر الأبيض المتوسط وما اختلط بها من أعمال قرصنة حقة قام بها غير المسلمين من شعوب أوربا المطلة على البحر الأبيض المتوسط . على أن تأسيس المسلمين حاضرة لهم بجزيرة إقريطش وإقبالهم على الامتزاج بأهلها ونشر الإسلام بينهم ينهض كل هذا دليلا يدحض ما يردده الأوربيون بالقرصنة .

وأخذ المسلمون يوسعون سلطانهم تدريجياً حتى شمل أرجاء الجزيرة كلها . وكانت الجزيرة مقسمة إذ ذاك إلى ثمان وعشرين مقاطعة دانت كلها بالطاعة للمسلمين ، وبدأت تشاهد عهداً جديداً فى ظل الإسلام دام قرناً ونصف قرن تقريباً . إذ دخلت فى ظل التبعية للخلافة العباسية حيث اعترف ولاتها بسلطان الخليفة فى بغداد ، وغدت تابعة لمصر فى التقسيم الإدارى لأرض

---

(١) Finlay, op. cit, 135, 136.
Gibbon, op. cit, 820.

الخلافة[١] . وهكذا وجد العالم الإسلامى ميداناً جديداً بعث نشاطهم البحرى من جديد، ورفع راية الإسلام خفاقة على مياه البحر الأبيض المتوسط . إذ سرعان ما تلقى مسلمو كريت المساعدات والإمداد من أرجاء العالم الإسلامى ، فضلا عما قاموا به أنفسهم من مجهودات خاصة فى تلك السبيل . إذ سرعان ما جددوا أسطولهم حيث أمدتهم غابات جبال « إدا » (Ida) بما احتاجوا إليه من أخشاب[٢] . واستطاعوا بفضل ذلك أن يردوا المحاولات البيزنطية المتكررة لاستعادة الجزيرة على أنقاضها ، ثم القيام بنشاط بحرى جعل المسلمين سادة البحر الأبيض المتوسط الشرقى .

وحقق استعداد المسلمين فى إقريطش الأغراض التى هدفوا إلى الوصول إليها . ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن لتغفل أمر هذه الجزيرة وتتركها لقمة سائغة يلتهمها المسلمون ، إذ فضلا عن أنها ركن تابع للإمبراطورية فإن ضياعها أصاب نظمها الإدارية القائمة إذ ذاك بشلل معقد ، لأن الإمبراطورية كانت مقسمة فى ذلك الوقت إلى أقاليم إدارية بكل منها فيلق من جند الجيش البيزنطى للدفاع عنها ، ويتولى شئون الإقليم القائد العام للفيلق . وعرف هذا التنظيم الذى جمع فيه قائد الفيلق إلى جانب سلطته الحربية ، سلطات مدنية ، باسم نظام البنود . وكانت بنود الإمبراطورية البيزنطية قسمين ، بنود برية ومعظمها ينتظم آسيا الصغرى ، وأخرى بحرية وتضم شواطىء آسيا الصغرى المطلة على بحر إيجه ، وكذلك سائر جزر هذا البحر . ولذا جاء ضياع كريت حادثاً فرط عقد البنود البحرية ، وأشاع الفوضى فى نظام التعاون الذى قام بينها وبين البنود البرية فى صدر حركات المسلمين البحرية . ومن ثم اضطلع قادة بنود آسيا الصغرى بمهمة استرداد كريت ، وأمدتهم السلطات المركزية بالقسطنطينية بما احتاجوا إليه من أمداد وأساطيل .

---

(١) Vasiliev, op. cit, 56;
Finlay, op. cit, 137.

(٢) Gibbon, op cit, 820.

بدأ الإمبراطور ميخائيل الثانى جهوده لإخراج المسلمين من إقريطش بعد أن انتهى من تهدئة الحالة فى آسيا الصغرى عقب القضاء على الثورة التى نشبت فيها . فجهز حملة قامت فى سنة ٨٢٨ م أى بعد نزول المسلمين مباشرة بأرض إقريطش . وتولى قيادة هذه الحملة فوتيناس (Photinas) حاكم بند أناتوليا بآسيا الصغرى ، واختيرت تلك الشخصية من ذوى الأصل العريق وممن كانوا يتمتعون بمركز ممتاز فى الدولة البيزنطية لجلال المهمة التى عهدت إليه . ولكن ما إن اقترب فوتيناس من إقريطش حتى أدرك صعوبة غزو الجزيرة بما كان لديه من قوات . فأرسل يطلب إمداداً ، بعثتها السلطات البيزنطية تواً تحت قيادة داميان أحد كبار رجال البلاط البيزنطى . غير أن هذه القوات كلها لم تستطع أن تناضل مسلمى كريت ، الذين برهنوا على صفاء معدنهم الأصلى ، وهو أنهم رجال شم الأنوف أباة ، يدافعون عن عقيدتهم دفاع الأمجاد الأبطال . فكما أنهم أبوا أن يطأطئوا الرأس من قبل فى بلاد الأندلس كذلك أبوا أن يهنوا أمام جحافل البيزنطيين ، وأنزلوا بهم هزيمة فادحة جرح فيها داميان وأخذ أسيراً ، على حين فر فوتيناس ، صاحب الأصل العريق ، فى مركب صغير إلى جزيرة « ديا » (Dia) التى تقع شمالى الخندق عاصمة كريت ، ومنها فر إلى القسطنطينية ليبلغ أول نبأ سيئ إلى الإمبراطور البيزنطى (١) ، ويكشف بجلاء عن صلابة عود مسلمى كريت ، وأنهم لا يقلون استبسالا فى القتال عن المسلمين الأول .

غير أن الإمبراطور ميخائيل الثانى لم يفقد الأمل ، وصمم على أن يعيد الكرة على مسلمى كريت . وأعد حملة اضطلع بها كراتيروس (Krateros) حاكم بند « كبيرا » ومعه أسطول مكون من سبعين سفينة . وتدل هذه الحملة الثانية على مدى ما جاش بنفس الإمبراطور من قلق ولهفة على استرداد كريت ، حتى إنه حشد لها قوات أكبر بند بحرى فى الإمبراطورية . إذ أن هذا البند هو الذى وقف بالمرصاد لعمليات العرب البحرية منذ أيام بنى أمية والعباسيين الأول وعرقل كثيراً من حركاتها . وتدعى المراجع البيزنطية أن هذا لحملة نالت

(١) Cedrenus, Annals, (1566), 418.

نصراً فى المعركة التى دارت رحاها على الشاطئ والتى ظلت مستعرة من مطلع الشمس إلى مغربها ، وأن المسلمين فروا تحت جنح الليل إلى داخل الجزيرة . ولم يتابع البيزنطيون جهودهم ، معتقدين أن المسلمين هزموا نهائياً وأنهم سوف يستسلمون فى صباح اليوم التالى . ولكن يبدو أن انسحاب المسلمين كان خطة مرسومة ، إذ جمعوا صفوفهم أثناء الليل ، وتسللوا إلى الساحل حيث استولوا على الأسطول البيزنطى الراسى فى مياه كريت ، ثم فاجأوا المعسكر البيزنطى ، حيث أنزلوا بالجند هزيمة ساحقة ، وقلبوا مرحهم ومجونهم الذى كانوا يقضون به أمسيتهم إلى أنين وجراح مثخنة . ولكن تمكن كراتيروس من التنكر والهرب على ظهر سفينة تجارية حملته إلى جزيرة كوس (Cos) . غير أن مسلمى كريت أدركوا هذه الخدعة ، وسارعوا إلى مطاردة هذه الشخصية الخطيرة فى ميدان العمليات البحرية ، وقبضوا عليه فى هذه الجزيرة ونقلوه إلى كريت حيث أعدم[١] .

وهكذا أنزل مسلمو كريت هزيمتين ساحقتين بشخصيتين من أعظم قادة الدولة البيزنطية ، وأطاحوا بحملتين كرست لها السلطات البيزنطية الشيء الكثير من جهودها وماليتها . وضمن هذا الفوز استقرار كريت تحت السيادة الإسلامية ، وحمل البيزنطيين على التخلى عن مشاريعهم لاسترداد الجزيرة . وقنعت الإمبراطورية البيزنطية بأن تكرس نشاط أساطيلها للدفاع عما تبقى لها من جزر فى بحر إيجه ، وتدفع عنها بأس أساطيل مسلمى إقريطش التى بدأت تبسط نفوذها على الجزر المجاورة لهم . فأعد الإمبراطور ميخائيل الثانى أسطولا حشد له خيرة رجال الإمبراطورية وأحسن أساطيلها ، وأنفق عليه بسخاء لحراسة بحر إيجه . واتجه هذا الأسطول إلى استعادة بعض الجزر الصغيرة التى دخلت فى التبعية لجزيرة كريت[٢] ، دون أن يستطيع التوفيق فى هذه المهمة . ومن ثم أخذ نفوذ البيزنطيين وهيبة أساطيلهم تضعف فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وانقلبت خطة مسلمى كريت من الدفاع إلى الهجوم .

---

(١) Cedrenus, op. cit, 420

(٢) Vasiliev, op. cit, 61.

بدأت حملات أساطيل إقريطش المظفرة فى عهد الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ – ٨٤٢) ، صاحب الجولات مع المعتصم العباسى . إذ فى السنة الأولى من عهد هذا الإمبراطور نالت أساطيل إقريطش فوزاً مبيناً على الأسطول الإمبراطورى نفسه قرب جزيرة ثاسوس (Thasos) ، ثم تابعت نشاطها تدريجياً حتى بلغت إغاراتها فى أواخر عهد هذا الإمبراطور إلى سواحل آسيا الصغرى سنة ٨٤١ م[١] .

وامتزج هذا الدور من النشاط البحرى باستغلال الفريقين المتناضلين للأحوال السياسية فى كل من دولتيهما ، إذ اتجه كل من المسلمين والبيزنطيين إلى تلمس حالات الضعف أو الفرص المواتية لعرقلة أى مجهود حربى به يقوم أى فريق منهما . إذ حدث فى سنة ٨٤٣ م أن أعد أحد القادة فى مجلس الأوصياء على الإمبراطور ميخائيل الثالث حملة للهجوم على جزيرة إقريطش يبتغى بها لنفسه الشهرة والمجد . ونجح هذا القائد ويدعى ثيوكيستوس (Theokistos) فى حصار مدينة الخندق بجنوده وأساطيله . لكن مسلمى إقريطش حملوه على رفع هذا الحصار والقضاء على خطته ، إذ دبروا له خدعة أشاعوها بين جنده حتى وصلت إليه ، وذلك بأن رشوا بعض ضباطه على أن يرددوا بين الجيش البيزنطى أن الإمبراطورة الأم الوصية رفعت أحد منافسى هذا القائد البيزنطى إلى مرتبة شريكها فى مجلس الوصاية وأبعدت ثيوكيستوس عن ميدان النفوذ والسلطان . وما إن بلغت هذه الشائعة مسامع ثيوكيستوس حتى أسرع عائداً إلى القسطنطينية ، تاركاً جيشه وأسطوله تحت رحمة مسلمى إقريطش[٢] . وبذلك باءت هذه الحملة بالفشل ، واستعادت أساطيل إقريطش نشاطها حتى هددت مياه القسطنطينية نفسها .

أثارت الهزائم المتتالية التى منيت بها الحملات البيزنطية الهائلة أولى الأمر فى القسطنطينية على دراسة هذا الموقف وتدبر سر قوة مسلمى كريت . ودلت

---

(١) Finlay, op. cit, 137.
Finlay, op. cit, 137.

(٢) Vasiliev, op. cit, 194, 195;
Bury, History of the Eastern Roman Empire, (London 1912), 291, 292.

الأحداث على أن بلاد العالم الإسلامى المطلة على البحر الأبيض المتوسط أمدت مسلمى إقريطش بالمؤن والعتاد ، وزودتهم بما جعلهم شجى فى حلق الإمبراطورية البيزنطية . واتضح أن مصر كانت القاعدة الرئيسية التى كفلت شئون إقريطش فى هذا الميدان ، تحت إملاء سياسة الخليفة فى بغداد ، إذ آثرت السلطات الإسلامية فى العراق تشجيع هذا النشاط البحرى الإسلامى لإضعاف قوة البيزنطيين على الجبهة الشرقية الممتدة بين شمال الجزيرة والشام وأرض الدولة البيزنطية فى جنوب آسيا الصغرى .

أدركت الإمبراطورية البيزنطية أن مصر دعامة نشاط مسلمى كريت البحرى ، وأعدت حملة للهجوم على دمياط وشل حركة التعاون بينها وبين كريت . وحدث الهجوم البيزنطى سنة ٨٥٣ م على دمياط فى عهد ولاية عنبسة بن إسحق على مصر . وكان الأسطول البيزنطى مكوناً من ثلاث وحدات كل وحدة منه بها مائة سفينة ، هاجمت واحدة منها تحت قيادة أمير بحر بيزنطى يدعى ابن قطونة دمياط فجأة أول أيام عيد الأضحى ١٢ مايو سنة ٨٥٣ — ٢٣٨ هـ وجاء هذا الهجوم ومدينة دمياط خلو من حاميتها ، التى سبق أن استدعاها الوالى إلى الفسطاط للاشتراك فى العرض الحربى هناك بمناسبة عيد الأضحى[1] . ومما لا شك فيه أن الدولة البيزنطية كانت واقفة بالمرصاد لهذه القاعدة الهامة وتنتهز الفرص للأيقاع بها ، إذ ليست المصادفة البحتة هى التى هيأت للبيزنطيين الهجوم على دمياط والمدينة عارية من وسائل الدفاع .

بدأ البيزنطيون جاهدين على إشعال النار فى المدينة التى وقفت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، ثم اتجهوا إلى مخازن المدينة واستولوا على مؤن كانت معدة لإرسالها إلى حاكم جزيرة إقريطش . وبعد أن حققوا هذه الهدف الرئيسى ، حطموا خزائن المعدات البحرية وأسرعوا عائدين إلى بلادهم ، قبل أن تصل النجدات الإسلامية من داخل البلاد . ولا يعرف الدور الذى قامت به الوحدتان البيزنطيتان الأخريان ، ولكن يحتمل أنها كانت تعمل على مراقبة مياه مصر

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٨ .

وكريت لمنع وصول المؤن التى كان مزمعاً إرسالها من مصر[١] . وهكذا جاءت أحداث حملة دمياط تثبت مدى التعاون الذى قام بين مصر وإقريطش ، وأن الإمبراطورية البيزنطية تنبهت إلى هذه الحقيقة بعد أن أعيتها الوسائل للحد من شوكة مسلمى إقريطش .

على أن هجوم البيزنطيين على دمياط بعث نشاطاً بحرياً إسلامياً جديداً على مقياس واسع المدى ، إذ اتجهت مصر أولا إلى تقوية أسطولها ولا سيما وحداته التى عهد إليها حراسة شواطئ البلاد ، وأخذت تنتقى الرجال الذين يصلحون للأسطول . وتردد صدى هذا النشاط الجديد فى استئناف أساطيل كريت حملاتها على أراضى الدولة البيزنطية واشتداد وطأتها . وزاد فى قوة هذه الإغارات الإسلامية الجديدة تعرض الدولة البيزنطية لخطر جديد من ناحية الروس، الذين ظهروا لأول مرة فى ذلك الوقت على مسرح أحداث الدولة البيزنطية . إذ فى سنة ٨٦٠ م قام الروس بغارة مفاجئة على القسطنطينية، وأعملوا فيها النهب وعادوا مسرعين . فانتهز مسلمو كريت هذه الفرصة المواتية وهاجموا جزر سيكلاديس (Cyclades) وشواطئ آسيا الصغرى وعادوا بغنائم وفيرة . وكان امتداد النشاط البحرى الإسلامى إلى شواطىء آسيا الصغرى هدفاً مرسوماً رمى المسلمون إلى تحقيقه . إذ كانت قواعد هذا الشاطئ مراكزاً يتجمع فيها الجند البيزنطيين الذى يحملهم الأسطول لمهاجمة جزيرة إقريطش، ومن ثم عرقلت إغارات المسلمين المتكررة عليها جهود البيزنطيين ، وقضت على التعاون بين قواتهم البرية والبحرية . وفضلا عن ذلك كانت إغارات المسلمين على جزر بحر إيجه حد لنشاط الأساطيل البيزنطية ، ومنع أهاليها من مد يد المساعدة للبيزنطيين . ففى سنة ٨٦٢ م أغار مسلمو إقريطش على جزيرة ميتيلين (Mytilene) وكذلك جزيرة نيون (Neon) سنة ٨٦٦ م[٢] .

وهكذا دعم مسلمو إقريطش سلطانهم البحرى فى بحر إيجة مرة ثانية ، وأثبتوا أن الجهاد الإسلامى ميدان تتعاون فيه جميع قوى العالم الإسلامى بما يكفل له

(١) Vasiliev, op. cit, 212-218.

(٢) Vasiliev, op. cit, 258.

العزة والمنعة . وغدت حركات الأساطيل الإسلامية مثار فزع وقلق فى الإمبراطورية البيزنطية ، دون أن تستطيع الخروج من هذه المآزق التى سببتها لها أعمال مسلمى إقريطش . واتضح من الأحداث الداخلية للإمبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة من القرن التاسع الميلادى أن مسألة إقريطش كانت الشغل الشاغل لأولى الأمر بالدولة ، وأنهم لم يكونوا جادين فى إعداد الحملات التى بعثوها إذ ذاك لإخراج المسلمين من إقريطش . إذ غدت أعمال القادة البيزنطيين الحربية ضد إقريطش ستاراً أخفوا وراءه أطماعهم السياسية وتحقيق مآربهم الشخصية . وتجلى ذلك كله فى الحملة التى أعدتها الدولة البيزنطية ضد مسلمى إقريطش فى عام ٨٦٦ م .

أخذت التيارات الخفية فى البلاط البيزنطى إذ ذاك تحدث أعمالها حتى انتهت بالقضاء على القائد الذى عهد إليه بتدبير شئون هذه الحملة وضياع مجهوداته نهائياً . وكان الموقف السياسى فى الدولة البيزنطية حينئذ يلخص فى أن مجلس الوصاية على الإمبراطور ميخائيل الثالث ظل قائماً ، غير أن أحد أفراده وهو برداس أخو الإمبراطورة تيودورا الأم الوصية ، وخال الإمبراطور ، أقصى جميع أفراد المجلس عن السلطة وانفرد بالهيمنة على شئون الدولة . وساعده على ذلك أن الإمبراطور القاصر كان خلواً من الصفات التى تؤهله لهذا المنصب الإمبراطورى ، إذ اهتم فقط بالملاهى وحفلات السباق ومصارعة القواد ، والإدمان على الخمر وهو فى هذا السن الصغير ، حتى منحه التاريخ لقب ميخائيل السكير .

كانت هذه الحا السائدة فى البلاط البيزنطى فرصة مواتية لمسلمى إقريطش ، الذين أكثروا من الإغارات على أراضى الدولة البيزنطية ، لكن برداس صمم على أن يدعم هيبته وما وصل إليه من نفوذ فى الدولة بإعداد حملة هدف من ورائها إلى إخراج المسلمين من إقريطش . على أن أحداث البلاط البيزنطى جرت إذ ذاك بما لا يهوى برداس ، إذ أن الإمبراطور السكير أظهر ضجره من خاله برداس ، وأخذ يعمل على إقصائه من الدولة . وكان للإمبراطور تابع أرمنى الأصل مقدونى الموطن اسمه باسل ، اتفقا سوياً على اغتيال برداس .

وسنحت لهما الفرصة حين أقبل برداس على استعداداته الحربية ضد مسلمى إقريطش[(١)] .

وكان مسرح المؤامرة فى آسيا الصغرى حيث ذهب إليها برداس ليشرف على معدات الحملة التى أخذت تتجمع فى موانى ساحل آسيا الصغرى استعداداً للانتقال إلى إقريطش ؛ إذ خرج الإمبراطور ومعه باسل المقدونى لتوديع برداس ، وأقاما فى آسيا الصغرى دون أن يأذن الإمبراطور لبرداس بالرحيل إلى إقريطش . ولما استبطأ برداس الحصول على أمر الإمبراطور ذهب لمقابلته واستئذانه فى القيام بالحملة . وفى هذه المقابلة تم ارتكاب الجريمة التى بيتها الإمبراطور وباسل ، إذ هجم عليه الحرس الإمبراطورى وقطعوه إرباً ، وأجهز الإمبراطور بنفسه على ما تبقى من هذا القائد . وتلى ذلك انهيار الترتيبات الحربية ضد مسلمى إقريطش ، وعاد الإمبراطور ومساعده باسل إلى القسطنطينية .

أثارت هذه الحادثة سخط الرأى العام فى العاصمة البيزنطية ، التى كانت تتحرق شوقاً لما ينتظر أن تسفر عنه هذه الحملة ، والتى عقدوا عليها الآمال الكبيرة فى طرد المسلمين من إقريطش ، إذ كان برداس القائد الفذ فى نظر العامة ، ومنقذهم المنتظر من إغارات المسلمين البحرية . وعبر أحد الرهبان الحانقين عما كان يجيش فى نفوس الأهالى إذ ذاك حين وقف الناس لاستقبال الإمبراطور وهو يطوف بأحد شوارع العاصمة عائداً من آسيا الصغرى بعد اغتيال برداس ، إذ هتف ذلك الراهب قائلا : « يحيا الإمبراطور ، وتحيا عودته من حملته المظفرة ! ، لقد عدت ملوثاً بالدماء ! »[(٢)] . وحاول حرس الإمبراطور القبض على هذا الراهب ، غير أن الأهالى تدخلوا ونجحوا فى إطلاق سراحه بحجة أنه مجنون لا يدرى ماذا يقول[(٣)] .

وهكذا ظلت إقريطش طوال القرن التاسع الميلادى الصخرة التى تحطمت عليها كل المجهودات البيزنطية ، وما حشدته لها السلطات البيزنطية من عدة

---

(١) Finlay, op. cit, 172-173.

(٢) Ibid, 193.

(٣) Ibid, 193.

وعديد . وسطر بذلك مسلمو إقريطش صفحة جديدة فى تاريخ الفتوحات الإسلامية فى العصور الوسطى ، وأتاحوا لجزيرة إقريطش مكاناً فى التاريخ البشرى ، وما تمتعت به فى ظل المسلمين من عز ورفاهية . واضطرت الإمبراطورية البيزنطية إلى خطب ود حكام كريت المسلمين بعد أن تبين لهم ما هم عليه من قوة وبأس ، واعتمدت فى ذلك على الوسائل السلمية ، حيث تجلى ذلك فى رسالة ودية بعث بها بطريق القسطنطينية نيقولا ميستيكوس أوائل القرن العاشر الميلادى إلى حاكم جزيرة إقريطش المسلم ، وسجل فيها ما يأتى :

« إلى الأمجد الأشرف الأعز ، أمير جزيرة إقريطش ، إن أعظم قوتى العالم أجمع ، قوة العرب وقوة الروم ، تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ؛ ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة ، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين . »

إبراهيم أحمد العدوى

(١) Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzantin, I, 405.